قصّة قصيرة

المعجزة

محمد البساطي

القرى في بلادنا تتشابه كثيراً. نفس المكان على شاطئ النهر أو الترعة وكوبري صغير يربطها بالمحطّة. وعادةً تمتدّ البيوت في الاتّجاه الآخر للمحطّة وكأنّما تبتعد عن عيون الغرباء الذين يمرُّون في القطارات والعربات. بيوتٌ طينيّةٌ لا شكل لها، ووسطها بعض البيوت الكبيرة من الطوب الأحمر، وبمدخل القرية ـ في منتصف الطريق إلى القبور ـ يوجد دائماً ضريح الشيخ الجليل. بقعةٌ صغيرةٌ هادئةٌ كثيفة الأغصان وبجواره زير مياهه رطبة.

كان شيخ قريتنا يسمَّى «عامر»، وكان ضريحه فوق مرتفعٍ يطلّ على بيوت القرية، ومثل كلّ الشيوخ في القرى الأخرى كانت له حكاياته ومعجزاته من شفاء عيون المرضى وإنجاب العاقر وإنصاف المظلومين.

وفيما مضى كانوا يحتفلون بمولده، وصواني الطعام تخرج من البيوت وسط الزغاريد إلى المرتفع حيث أقيمت السرادقات وأُضيئت الكلوبات. ويخرج الأهالي بأغطيتهم ويقضون ليلتهم فوق المرتفع.

كان الخير كثيراً والناس قليلين، والآن تمتدّ البيوت طويلاً وسط الحقول وفي الضواحي، ويبدو الضريح فوق المرتفع كحارسٍ يغفو بعيداً عن العيون، لا أحد يلتفت إليه، وقد تساقطت الحجارة من سقفه، وشاخت شجرات التوت حوله ولم تعد تثمر.

وما حدث بعد ذلك كان أمراً عجيباً جعل ضريحنا حديث القرى كلّها في الناحية.

في الشتاء انهمر المطر في عنفٍ لم ترَ البلدة مثله منذ سنوات طويلة. كانت المياه في الشوارع تغطّي مصاطب البيوت. أربعة أيّامٍ بلياليها لم يتوقّف المطر لحظة.

وذات صباح كان نفرٌ من الأهالي يجمعون الطماطم في الحقول القريبة من الضريح. ورأوا رأس التابوت الخشبيّ الملفوف في قماش أخضر يطلّ عليهم من ثغرةٍ واسعةٍ بسقف الضريح.

توقّفوا على الجسور وتبادلوا النظرات في وجل. كان الرأس الأخضر يدور في فراغ الثغرة، ويتوقّف لحظة ليرقص ويتمايل ثمَّ يستمرّ في دورانه. جاء الأهالي جرياً على السكك وأحاطوا بالمرتفع. كانت مياه المطر تنحدر فيما يشبه القنوات والسماء لاتزال معتمة. وقصف الرعد شديداً، وعندما كانت خيوط البرق تتلاحق كان الرأس الأخضر يبدو في الضوء الفضيّ الساطع وكأنّما كفَّ عن الحركة وانكمش قليلاً داخل الثغرة.

ـ خمسة أعوام لا نقيم له مولداً.

ـ ولا يزوره أحد.

ـ حتى كسوته تمزّقت ولم نغيّرها أبداً.

وفي همسٍ خافتٍ راح البعض يبتهلون، وامتدّ الهمس إلى الجميع، كانوا يتمتمون بما يخطر لهم من دعاء وتسابيح، وبدا الهمس ـ حين أخذ يرتفع ـ مضطرباً غير منسجمٍ في إيقاعٍ واحد. وسرعان ما تنبَّهوا، وتردَّدوا قليلاً ثمَّ صمتوا.

وظهر فجأة «مرعي» ـ خادم الضريح ـ كان في مقهى بالسوق حين وصله النبأ فجاء مولولاً وشقَّ طريقه بين الجموع منحنياً على نفسه وذراعاه فوق صدره. إنّه أيضاً نادراً ما يجيء إلى الضريح. وكان يختفي شهوراً طويلة عن البلدة ثمَّ يعود فجأة ممتطياً حماراً وفتحتا الخرج منتفختان.

وكانوا يقولون له: والمقام يا مرعي؟

ويهزّ كتفيه العريضتين في إيقاعٍ متراقصٍ وهو يمضي مبتعداً:

ـ وأفتحه لمن؟ شيخ فقر.

عندما أصبح في مواجهة الخلاء توقَّف واستدار إليهم. حدَّق لحظة صامتاً وعيناه محمرّتان من البكاء ثمَّ انفجر صائحاً:

ـ الآن تأتون يا بقر. الآن تأتون أتظنّون أنّه ينساها لكم؟»

وانحنى ملتقطاً فرع شجرة وهوى به على القريبين منه:

ـ توبوا يا بهائم. توبوا.

كان يبكي ويصرخ كالمجنون، ثمَّ راح يتمرّغ في الوحل ويعوي:

ـ أنا خادمك يا سيدي عامر. خادمك وعبدك.

وخفّت حدّة المطر. كان يسقط في رذاذٍ متقطّع، وضوء شاحب بدأ ينفذ بين السحب الثقيلة. ورأوا الرأس الأخضر يبطئ من دورانه، وسمعوا الصوت الصادر من جوف الضريح أشبه بتكسّر أغصان الشجر، ثمَّ رأوا الرأس الأخضر يغوص في بطء. وتأرجح قليلاً ثمَّ اختفى.

وحدّقوا في صمتٍ إلى الفوهة الواسعة وكان يتصاعد منها بخارٌ رقيق. وصعد مرعي ومعه بعض الأهالي وفتحوا باب الضريح، واندفعت المياه في قوّة من الداخل، ورأوا الصندوق الخشبيّ وقد انزلقت عنه الكسوة الخضراء في وضعٍ مائلٍ مستنداً بمؤخّرته على المصطبة الحجريّة.

لقد انتاب البعض الشكّ، بدا ذلك في عيونهم وهم عائدون من فوق المرتفع، غير أنّهم اعتادوا أن يحتفظوا بشكوكهم، ويتهامسوا بها قليلاً في الخفاء. وحين رأوا الكبار في البلدة يجمعون النقود ويقومون بترميم الضريح وطلائه، ورأوا أيضاً الكثيرين يأتون من القرى المجاورة لزيارة ضريحنا بدا وكأنّما قد هدأت شكوكهم واعتبروها من الوساوس الشرّيرة التي تراود أحياناً عباد الله المؤمنين.

وكان مرعي يجلس الآن صباح كلّ يوم جمعة يستقبل الزائرين أمام باب الضريح وقد صبغ يديه بالحنّاء.

القاهرة